السير محمد اقبـــال

رحمـــه الله

للأستاذ عبد الوهاب النجار

منذ أيام توارت شمس من شموس الهداية بالحجاب ، وسكن قلب كان لا ينبض إلا باحياء الاسلام ولا يختلج إلا بمجد الاسلام ولا يعيش إلا بأمل إعلاء شأن الاسلام وإنعاش أهل الاسلام .

كان شاعر الهند وفيلسوف أهل الهند ومعقد رجاء أهل الهند عامة وأهل البنجاب خاصة، والقبلة التى يولى الشباب فى تلك الديار وجوههم شطرها وبهديه يعملون وعلى نهجه يسيرون .

لم تكن معرفتى بالسيد إقبال حديثة العهد ، فقد كنا فى المؤتمر الاسلامى بفلسطين أعضاء فى سنة ١٩٣٠ ، وجاء إلى مصر وألقى بجمعية الشبان المسلمين محاضرة كان لها الوقع الحسن عند السامعين ، ألقت ضوءاً لامعاً على أحوال المسلمين فى الهند ومقاصدهم .

وقد كان السير محمد إقبال أول من فكر مولانا صاحب الفضيلة الشيخ الأكبر فى الاستنارة برأيه فى مسألة المنبوذين وجاء رأيه إلى الشيخ ، ولتعدد وجوه الرأى على الأستاذ أرسل البعثة الأزهرية لدراسة المسألة عن كثب وتعرف وجه الرأى فيما يمكن عمله ، وقد اتصلت به البعثة فى لاهور وقضت بضع ليال فى الوجود معه ودراسة المسألة بعنايته وإرشاده .

وقد رجعت إلى مذكرتى اليومية التى كنت أكتبها عن أيام البعثة فى الهند فوجدت ما يأتى :

يوم السبت ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧

فى الصباح الباكر من يوم السبت ٢٣ يناير سنة ١٩٣٧ وفى صبارة البرد

القارس وقف بنا القطار فى محطة صغيرة قريبة من لاهور، فاذا نحن بثلاثة فتيان أحدهم طبيب والآخران من الكلية الاسلامية بلاهور قد جاءوا إلينا وأسنانهم تقضقض من شدة البرد ، فسلموا ورددنا تحيتهم بأحسن منها ، وجلسوا معنا وقد علمنا أنهم قد باتوا فى هذه الضاحية من أول الليل ليبادرونا بالتلقى وليأخذوا منا وعداً بالقاء كلمات أو محاضرات عليهم لأنهم من طلبة العلم وأولى الناس بان يكون حظهم منا أوفر، فوعدناهم بتسنية طلبهم وأبدينا أسفنا لما لاقوا فى سبيلنا . وبعد دقائق معدودة كنا فى محطة لاهور . وكان فى استقبالنا جمهور من أفاضل الطلبة ومحررى الصحف وغيرهم ومنهم السيد محمد الهاشمى وبعد أن ألبسونا العقود الزهرية راغ السيد محمد الهاشمى روغه فأتى إلينا بسيارة يسوقها سرى من سراة البلد لتقلنا إلى الفندق، وكان ذلك السائق هو نجل السير سكندر حياة رجل الساعة فى البنجاب ، وقد صار رئيس الوزراء فى هذه الناحية فيما بعد فشكرنا لها هذه الأريحية . وقد كنت فى النصف الثانى من السنة الماضية أرسل بخطابات منى إلى السيد الهاشمى ليوصلها إلى السيد أحمد على المبارى الذى كان طالباً فى الأزهر قبل ذلك .

وبعد أن استقر بنا المقام فى الفندق وصل إلى كتاب كريم من صديقى وابن صديقى الأستاذ أحمد صادق بكر مراقب قسم الانتاج بالاسكندرية يذكر لى أنه لقى خان بها دور الكلونيل مقبول حسن قريشى وزير الحقانية بهاولبور ووزير المهام الخاص لسمو النواب وقد ذكر له البعثة وصداقتى له ولوالده من قبل فطلب منه الوزير عنوان البعثة ليرسل إلى النواب ليطلبها إلى بلده . وذكر له أن النواب معنى بالأمور الأسلامية وأكد على صادق بكر بأجابة طلب النواب متى أرسل الينا .

وفى هذا اليوم ذهبنا جميعاً إلى السير محمد إقبال شاعر المسلمين فى الهند وفيلسوفهم فأقمنا معه برهة طويلة من الزمن، والرجل مريض قد ذهب صوته إلا قليلا ونحل جسمه ولكنه كبير الروح عظيم الشخصية كما عهدناه من قبل وأن ذلك الجسم الذى نهكته الأمراض لازال يحمل عقلا صحيحا وروحاً سليما ورأياً

ناضجاً وكنا نريد عدم إطالة الحديث إشفاقاً عليه ولكنه كان يأبى إلا أن يسترسل وقد أتى بخريطة بلاد الهند وكان يضع يده على كل قسم من الأقسام المهمة ويتكلم عنه وعن أهميته والحال النفسية والدينية لأهله وما الذى يرجى لأهله فى المستقبل ومن فيه من المنبوذين والكيفية التى يصلح العمل بواسطتها فى كل أقليم من الأقاليم. فتكلم على سورات داسام وبرما وتاجبور وحيدراباد وترافنكور وغير ذلك، وتكلم عن نفسية الهنادكة وما يضمرون من الشر لأهل الاسلام فما اثبته من قوله، إن الهنادكة يزعمون أن المسلمين لهم رغبة صادقة فى بقاء الانكليز حكاما فى البلاد لخوفهم من أن تجر فهم قوة الهنادكة الذين هم الأكثرية الساحقة.

والحقيقة أن الرغبة الصادقة فى بقاء الانكليز فى الهند إنما هى صادرة من الهنادكة، وذلك أنهم يخشون جانب الأقلية الاسلامية الفقيرة، أما كونهم يحسبون الحساب للأقلية الاسلامية أن تفتك بهم فلانهم يعرفون حق المعرفة قوة المسلمين وجرأتهم على القتال إذا جد الجد؛ ودليلى على ذلك أن السنج أخذوا مسجداً إسلامياً ووضعوا أيديهم عليه وحاول المسلمون استرداده برفع الشكايات إلى الحكومة فلم تنلهم حقهم فعولوا على أن يحكوا جلدهم بظفرهم وأن يتولوا أمرهم بنفسهم وأن ينتزعوا المسجد من يد السنج عنوة فجاء البوليس لرد المسلمين بقوة السلاح وأطلق عليهم الرصاص فأصاب اثنين وعشرين من المسلمين كانت كل إصاباتهم فى صدورهم ولم يوجد بينهم من أصيب وهو مول ظهره ومثل هذه الجرأة وهذه المعاداة لاتوجد فى الهنادكة مطلقاً — وعلة كون المسلمين فقراء أن الحكومة الانكليزية حين وضعت يدها على هذه البلاد لم يقم لمنازعتها سوى المسلمين فلما ملكت ناصية الحال استهدف المسلمون لعسفها وجورها ونزعت أموالهم من أيديهم بالقوة وصيرت أموالهم وأراضيهم فى أيدى الهنادكة وكف المسلمون عن التعاون معها فاستعانوا الهنادك فأعانوهم.

وحينئذ وجدت الفرصة سانحة لاثراء الهنادك إثراء فاحشاً وبقى المسلمون فى فقر مدقع وصارت دنيا الهند فى أيدي الهنادك بالتجارة والوظائف الحكومية

وأملاك المسلمين التى أصارها الانكليز إلى الهنادك وزاد فى حال المسلمين سوءا أنهم نفروا من الانكليز نفرة شديدة وأبوا أن يتعلموا فى مدارسهم فسبقهم الهنادك إلى كل وظائف الدولة ومرافقها — وكل ما يخشى عليهم الآن مما بقى فى أيديهم أن تفتر عزائمهم ببعدهم عن الدين الذى هو القوة الباقية والحصن الواقى ونحن نريد أن نغذيهم بالدين لتبقى لهم القوة ويبقى الدين قوياً فيهم ولهم ،

فقلنا له — وهل من برهان قاطع على ما تقول من أن المسلمين غير ميالين إلى الانجليز كما تقول ؟

فقال ، إن أمثال هذه العواطف والميول لا يكتب بها صك ولا تسوّد فى بطون الكتب ولا تخلد فى الدفاتر — ثم سكت قليلا وقال — قد وجدت البرهان حاضرا فاذهب فاعلم أنك ستلقى محاضرة فى المكان الفلانى فى الساعة الفلانية تنتقد فيها السياسة الانجليزية ثم انظر من الذين يتهافتون على سماع المحاضرة الانتقادية ، لاشك أنك تجد عددا لا يحصى من المسلمين قد حضروا إلى المكان فى الموعد وإنى لأشك أن يوجد ثلاثة من الهنادك .

ثم اذهب وأعلم أنك ستلقى محاضرة فى زمان كذا ومكان كذا تبين فيه محاسن السياسة الانجليزية ثم انظر من يحضرون إلى المكان الذى أعد للمحاضرة فلا شك فى أنك تجد عددا لا يحصى من الهنادك ولا تجد ثلاثة من المسلمين ، فقلنا إذاً ينحصر ضعف المسلمين فى قلة عددهم وفقرهم وجهلهم ، فقال : « إن قلة العدد لا تخيفنا ، فان المسلمين إذا جتمعوا وكانت قلوبهم متحدة فان خطر القلة لا يؤبه به . والفقر ليس مما يخيفنا فانا نراهم إذا جد الجد يقدمون على العظائم بلا خوف ولا وجل وإنما الخوف كل الخوف من أن تتراخى فيهم الحمية الدينية والذى يهمنا الآن أن نشرب قلوبهم الحمية للدين وأن يشعروا بالعزة الاسلامية وأن يوقنوا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

إن البعثة الأزهرية جاءت إلى هذه البلاد أحوج ما كانت البلاد إلى مجيء مثلها ، وإن قدومها ليشعر قلوب المؤمنين أن الاسلام له بقية وأن له أنصاراً

يعاضدونه ويحرصون على إشاعته وإذاعة فضائله من وراء البحار . »

ومن الأدلة التى أقامها على تعويل الهنادك على اعضاد الهنادك بالقوة الانجليزية أن المسلمين فى كشمير يزيد عددهم على ٩٠ ٪ من سكان البلاد يحكمهم مهراجا وثنى ونسبة عدد الوثنيين هناك لا يزيد على ٥ ٪ . فلما قام المسلمون منذ عهد قريب طالبين إسقاط المهراجا وأن يكون الحكم فى البلاد للاغلبية المسلمة التجأ المهراجا إلى الانجليز طالبا منهم حمايته من الأكثرية من رعيته فقبل الانجليز أن يحموه على شرط أن يقبل وجود مستشار إنجليزى، فرضى بما طلبه الانجليز وصار المستشار الانجليزى بيده كل شىء فى تلك البلاد وله الأمر النافذ على المهراجا الهندوكى .

قال السير إقبال « على أثر ذلك ذهبت إلى رجال الحكومة وقابلت نائب الملك وقلت له : إن كان قصارى جهدكم أن تكونوا حكاماً فقط فاسمحوا لى أن أرسل خمسه وعشرين الفاً من المسلمين ليهاجموا كشمير ويقتلوا الأقلية الهندوكية ثم تفضلوا أنتم واحكموا تلك البلاد ولا تكون محكومة باقلية ضعيفة من الهنادك . »

عندئذ قلنا للسير إقبال : إن ما تقوله بشان بلاد كشمير يقوله الانجليز فى الولايات التى حكامها من المسلمين والمسلمون هناك أقلية . فكان جوابه أن الحكام الذين يحكمون أكثرية هندوكية كانت الفرصة سانحة لهم ولآبائهم وأجدادهم بان ينشروا دعوة الاسلام حتى يكون الاسلام أكثرية ساحقة ولكن القوم ألهاهم التكاثر فى الأموال ورضوا بما أحاطوا به أنفسهم من عزة الملك وأبهته ، وقصروا فى واجبهم الدينى ومن العدل أن يتجرعوا الكأس المريرة التى هى عصارة تقصيرهم فى حق دينهم ، إهمالهم لشانه فلا تبالى ما يصنع معهم .

ثم قال : « ومن الأدلة على أن الهنادك يريدون أن يزيلوا الحكم الفعلى الانجليزى مع بقاء الحكم الاسمى فقط للانكليز وأن يكون تحكمهم فى مستقبل المسلمين لا معقب له وأن يتناولوا الكستنا من النار بمخالب الهر الانجليزى . وأن بعض كبار الرجال من المسلمين عرض على رجال الكونجرس الذى يصدر الهنادك عن رأيه أن يكون الحكم فى الولايات التى أكثريتها من المسلمين فى يد الأكثرية

الاسلامية مع ضمان حقوق الأقليات ، والولاية التى أكثرها هندوكية حكومتها تكون بيد الأكثرية الهندوكية مع حفظ حقوق الأقليات الأخرى ؛ فلووا رءوسهم وأعرضوا .

وقالوا نريد أن ننسى الدين وأن يكون أهل بلاد الهند كلهم وطنيين هنديين وأن يكون الحكم الفعلى بيد الأكثرية الهندوكية التى يمثلها الكونجرس والحكم الاسمى للأنجليز فى نظير أن يحموا الهند من الدول الأخرى المجاورة والأفغان وإيران، أى أن يكون الانجليز بوليساً حربياً لوقاية حدود الهند من إغارة جيرانه فى نظير الاعتراف لهم بالحكم الاسمى . وبذلك يقضى على المسلمين فى الهند قضاء لا مرد له — على أن كثيرا من قادة الرأى من الهنادك لايخفون نياتهم السوداء وما يضمرونه من السوء للمسلمين فهم يصرحون من فوق منابر الخطابة أنهم متى نالوا الاستقلال وحكموا البلاد فانهم لايبقون فى الهند مسلما لأن المسلمين دخلاء طارئون على هذه البلاد . وقد صرح بذلك مونجى وغيره من زعمائهم فى السنين الأخيرة . وماحدث أخيراً (اى ونحن فى الهند) . ان الزعيم جوهرلال (وهو ابن الزعيم موتيلال نهرو) وهو شاب معمور الفؤاد بالهندوكية والبولشفية معاً جاء إلى لاهور فى أثناء الانتخابات وكان مجيئه إليها من مدراس طائرا فلما وقف لالقاء إحدى خطبه الانتخابيه قال (إن فى الهند قوتين تتنازعان : الكونجرس والحكومة الانجليزية) فرد عليه الزعيم المسلم الكبير (السير محمد على حتاح) قائلا إنك نسيت قوة ثالثة قوية وهى القوة الاسلامية فان ثمانين مليونا من الناس قوة يحسب العاقل حسابها ، ولكنك معذور لأن عقلك طائر بين بنارس الهندوكية وموسكو البولشفية — ومما ساقه السير إقبال على أن الفقر والقله لايهدان عزائم المسلمين أنه لما قام النزاع بين المسلمين والسيخ على مسجد بلاهور ، قامت قبائل الوزيرية وهم من القبائل الضاربة فى الجبال المحيطة بمضيق خيبر وهذه القبائل يحسب الانجليز لمقدرتها الحربية ألف حساب وحساب، وطلبت من القوة الانجليزية أن تبرز لحربهم ، وقد استعد الوزيرية للحرب استعدادا عظيما فلم تبرز لهم القوة الانجليزية مع إلحاح الوزيرية فى الطلب فأرسل الوزيرية إلى السير إقبال خطابا (وكان

فى بهوفال) يقولون له: إنا نعلم إنك صديق الانجليز وقد خرجنا مستعدين لقتالهم فلم يبرزوا لنا فنرجوك أن تقنعهم بأن يبرزوا لقتالنا . وفى النهاية ذهب إليهم كبير الضباط فى منطقة الحدود وسألهم عن سبب تهيئهم لحرب الانكليز وهم لم يأتوا موجبا لذلك ؛ فقالوا له : كيف تقول هذا وأنتم أعطيتم السيخ مسجد المسلمين به فقال : إن المنطقة التى نحن فيها لم يكن بها مسجد أخذه السيخ وهذا الحادث إنما هو فى لاهور فقالوا له إذن دعنا نذهب لمحاربة السيخ فى لاهور فلم يزل بهم حتى أقنعهم بأن ذلك ليس من اختصاصه وأن المسألة قد انتهت ولم يبق لها أثر . ثم قال السير إقبال أن الهنادك يحرصون الحرص كله على شيئين : هما تركيز المال فى الهند فى أيديهم ، ونظام الطبقات . ولكن من سوء حظهم أن العالم فى هذا العصر تلتقى فيه موجتان تريد كل منهما أن تطغى على الأخرى وتزيل أثرها : إحداهما الديموقراطية وهى إذا قويت واجتاحت الحدود إلى داخلية الهند أزالت الارستوقراطية الهندية وقوضت نظام الطبقات وأتت على بنيانه من من القواعد ، والثانية البلشفية وهى إذا تغلغلت فى الهند أزالت الرأسماليه وبذلك ينهار غنى الهنادك وثراؤهم وتصبح أيدى الهنادك مما علقت به صفراً

على أن كثيراً من المسلمين قد اغتروا بسفسطة الهنادك التى يخفون وراءها كل نية سيئة ينوونها للمسلمين ، وقالوا بما يقوله رجال الكونجرس من اعتناق الوطنية الهندية واطراح الأديان جانباً مثل الدكتور الصارى عليه رحمة الله ، ولكنهم كانوا مخطئين وقد رجع بعضهم الى الصواب نابذاً تلك الفكرة وقد ذكر لنا السر إقبال مسألة لا يعلمها كثير من الناس وهو أن الانجليز لما دخلوا فى غمار الحرب العظمى احتاجوا فى الميادين الأوربية الى قواتهم التى كانت فى الهند فلم يبق لهم فى تلك البلاد سوى خمسة عشر ألفاً كانوا يطوفون بها فى إحدى المدن نهاراً ، ثم تسافر إلى مدينة أخرى ليلا ثم يجعلونها تطوف فى شوارع تلك المدينة فى يوم آخر ، ثم تسافر إلى مدينة أخرى ليلا ؛ فكانت كل مدينة يعتقد أهلها أن الجند المقيمين عندهم خمسة عشر ألفاً فى حين أن جميع الجند فى الهند يبلغ خمسة عشر ألفا .

ومع هذا فقد خشيت حكومة الهند أن ينقض عليها جيرانها وهى على تلك الحال ، فأرسلت رجلا من الضباط العظام فعقد معاهدة مع حبيب الله خان فى كابل تعهد فيها بأن لا يهاجم حكومة الهند؛فكان ذلك سبباً فى اغتياله بطريقة لم تزل من الأسرار الغامضة . وقصارى القول أن السير محمد إقبال كان راسخ الايمان بأن الأقاليم الشمالية من بلاد الهند التى أكثريتها إسلامية لا مناص من أن يأتى عليها وقت تكون مستقلة فيه على نسق الولايات المتحدة ، وهى البنجاب وكشمير وولاية الحدود والبنجاب والسند وبلوخستان وقد وضع لها مقدماً اسم (باتستان) أى الأرض المطهرة أو أرض القداسة وكان يصرح بذلك للانكليز أنفسهم . والسير إقبال من الأفراد القليلين الذين كتبوا صحيفة حياتهم بأحرف من نور، لم تؤخذ عليه فى حياته الخاصة أو العامة هفوة أو نبوة أو كبوة بل كان جهاده لدينه وأمته وللانسانية مخلصاً مجاهداً فى الله حتى وافاه الأجل المحتوم ، وقد دفن فى باد يشاهى مسجد وهو أعظم مسجد رأيناه فى لاهور أنشأه المرحوم ساهجات المغولى وله حوالى ثلاثمائة سنة وعلى جانبيه الشمالى والجنوبى حجر يبلغ عددها فى كل جانب عشرين حجرة وقد طال تأملى فى تلك الحجر حين صلينا الجمعة فى ذلك المسجد يوم ١٩ يناير سنة ١٩٣٧ وكان ظنى قد سبق إلى أن تلك الحجر كانت مساكن لطلبة العلم ولكن منعنى من ذلك أنها لا أبواب لها وأدركت أنها تحتوى قبوراً لأولى النباهة والفضل فرحمه الله رحمة واسعة وعزى آله والمسلمين فيه عزاء جميلا .

« من مذكراتى عن البعثة الأزهرية فى الهند »

عبد الوهاب النجار